ثانياً : سَجْع الكُهّان

الكَهانَةُ، بفتح الكاف، مصدرُ: كَهَنَ لَهُ، إذا قَضَى له بالغيبِ، وقلّما يُقالُ إلاّ: تَكَّهَنَ؛ وقد كَهُنَ إذا صار كاهنًا؛ والحِرْفَةُ: الكِهانة، بكسر الكاف؛ ويلحق بالكِهانة العَرافة والتَّنْجِيم؛ والعرب تسمّي كاهنًا كلَّ مَنْ تَعاطى عِلْمًا دقيقًا، ومنهم مَنْ يُسَمّي المنجِّم والطّبيب كاهنًا.

والكِهانةُ ظاهرةٌ معروفةٌ عند جميع الأممِ على اختلافِ درجاتها في التَّحضُّر؛ وقد تكَّلم على الكِهانة كثيرٌ من أهل العلم قديمًا وحديثًا وبسطوا القولَ فيه وأوجزوا؛ والكِهانةُ ضُروبٌ عِدّة، فمِن الكُهّان في الجاهليّة مَن كان يَدّكُرُ أنّ له صاحبًا مِنَ الجِنِّ، يُخْبِرُه بما يَسْتَرِقُ مِنَ السَّمْعِ مِنَ السّماء، أو يخبره بما يطرأ ويكون في أنحاء الأرضِ مِمّا يَخْفَى عليه، ويُسمَّى ذلك الجِنِّيُّ رَئِيًّا، ومِنَ الكُهّان مَنْ كان يَسْتَدِلُّ على الأمور بظنِّه وحَدْسِهِ وتَخْمِيْنِهِ، وهي مَقْدِرةٌ لا تُنْكَرُ عندَ بعضِ النّاس، ولكنّهم كانوا يَزْعُمونَ أنّهم يعرفون تلك الأمورَ بالزَّجْرِ والطَّرْقِ بِالحصى والنُّجومِ ونحو ذلك، ومِنْهم مَنْ يَستَنِدُ إلى التّجربةِ والعادة، فيتوقّعُ أمورًا بناءً على مُقَدِّماتٍ مِنَ الكلام أو الأفعال أو الأقوال سَلَفَتْ في حوادِثَ أُخرى.

١– الكهانة عند العرب:

عرَفَ العربُ هذا الضَّرْبَ مِنَ العِلْمِ في الجاهليّة، وكان شائعًا فيهم، ولاسيّما في اليمن، حتّى كان العرب يأتونهم مِن كلّ حَدَبٍ وصَوْبٍ يستشيرونهم ويَصْدُرونَ عن رَأْيِهِمْ؛ ولعلّ كَثْرَةَ انتشارهم في اليمن راجعٌ إلى كَثْرَةِ المعابدِ الوثنيّة فيه، وإلى تقديسِهمُ الشّمسَ والقمرَ والنّجومَ منذ أقدم عصورِهم.

وقد **اشتهر بالكِهانةِ عددٌ من الرّجالِ والنّساء**، لَيْسُوا بكَثْرَةِ الخُطَباء، فمن الكُهّانِ المعروفين: سَطِيحٌ، وهو رَبِيعُ بنُ رَبِيعَةَ الذِّئْبِيُّ الغَسّانيّ مِن أهلِ الجَابِيَةِ بالشّام، وشِقُّ بنُ الصَّعْبِ البَجَليُّ القَسْرِيّ الأَزْديّ، وسَلَمَةُ بنُ المُعَقَّلِ الحارثيّ، وسَلَمَةُ بن أَسْحَمَ القُضاعيّ، وكانَ سادِنًا للعُزَّى، والكاهنُ بنُ حبيبٍ الخُزاعيّ، وعَوْفُ بن رَبيعةَ الأَسَدِيّ، وغيرُهم؛ ومِنَ الكَواهِنِ: طَرِيفَةُ الخَيْرِ الَّتي كانت معَ مُزَيْقِياءَ عَمْرِو بنِ عامِرٍ مِنْ سَبَأ، وزَبْراءُ القُضاعيَّةُ كاهِنَةُ بَنِي رِئامٍ في اليَمَنِ، وكاهِنَةُ ذِي الخَلَصَةِ –وهو صَنَمٌ للعَرَبِ بـ(تَبالةَ) – وسَلْمَى الهَمْدَانيّة، والزَّرقاءُ بِنْتُ زُهَيْرٍ الجَدِيسيَّة، ونَجَاح كاهِنَةٌ كانت بالحِجاز، وغيرُهُنّ؛ ويُلْحَظُ أنّ معظم هؤلاء الكُهّان والكَواهِن من قبائل اليمن.

٢– مناسبات الكهانة وأمثلةٌ مِنْ سَجْعِ الكُهّان:

احتاجَ الجاهليّون إلى هؤلاء الكُهّان في كثير من أمورِهم وشؤونهم الخاصّةِ والعامّة، كالزَّواجِ والوِلادةِ والحرب ودَفْعِ الدِّيَاتِ والإقامةِ والظَّعْنِ، وكانُوا يُحَكِّمُونَهم في مُنافَراتِهم ومُفاخَراتِهم؛ فكانوا يَقْصِدُونَهم ليستشيرُوهُمْ ويَسْتَنْبِئُوهُم، ثُمَّ كانُوا يَصْدُرُونَ عَن رأيِهم، ورُبّما خالَفُوهم.

وما يُهِمُّنا مِن هؤلاءِ الكُهّانِ ما وصل إلينا مِن آثارهم الأدبيّة، ولذلك سنقفُ عند أمثلة من أقوالهم، لِنَرى كيف كانوا يتكلّمون، وما الظَّواهر الفنّيّة في كلامهم.

فمن ذلك أنّ رُقَيَّةَ بِنْتَ جُشَمَ زَوْجَ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ والدِ بَنِي عامرٍ ولَدَتْ لَهُ نُمَيْرًا وهِلالاً وسُواءَةَ، ثُمَّ حمَلَتْ فأتَتْ كاهِنَةَ ذِي الخَلَصَةِ فأَرَتْها بَطْنَها، فنظرَتْ إليها ومَسَّت بَطْنَها وقالت: «**رُبَّ قبائِلَ فِرَق، ومَجالِسَ حِلَق، وظُعُنٍ حُزُق، في بَطْنِكِ زُقّ**»، فلمّا جاءَها المَخاضُ قالت: "أعرِفُ ضَرِطِي بِهِلالٍ!"، أَيْ: هُوَ غُلامٌ كما أنّ هِلالاً كانَ غُلامًا.

ومنه أنَّ عَمْرَو بنَ بَرّاقَةَ الهَمْدانيّ – وكان شاعراً صُعْلُوكاً– أراد الإغارةَ على رجلٍ مِنْ مُرادٍ يُقالُ له (حَرِيم)، فأَتى سَلْمَى الهَمْدانيّةَ يَسْتَشِيرُها، فقالت: «**والخَفْوِ والوَمِيْض، والشَّفَقِ كالإِحْرِيض، والقُلَّةِ والحَضِيض! إنَّ حَرِيْمًا لَمَنِيعُ الحِيْز، سَيِّدٌ مَزِيز، ذُو مَعْقِلٍ حَرِيز؛ غَيْرَ أَنِّي أَرى الحُمَّةَ سَتُظْفِرُ مِنْهُ بِعَثْرَة، بَطِيئَةِ الْجَبْرَة؛ فأَغِرْ ولا تُنْكَعْ**»، فأغارَ عمرٌو فاسْتاقَ كلَّ شَيْءٍ لَه [الخَفْوُ: اللَّمعانُ الضَّعيف؛ والوَميض: أَشَدُّ لَمَعاناً مِنه. والإِحْرِيض: حِجارةُ النَّوْرَةِ (الكِلْس). والحِيْز: النّاحية. ومَزِيز: فاضل. والحُمَّة: القَدَر، واحِدَةُ الحِمام. وتُنْكَع: تُرَدّ].

ومنه أنّ زَبْراءَ القُضاعيّةَ الكاهنةَ أَنْذَرَتْ بَنِي رِئامٍ مِن غَزْوِ بَنِي ناعِبٍ وبَنِي واهِنٍ، فقالت: «**واللَّوْحِ الخافِق، واللَّيْلِ الغاسِق، والصّباحِ الشّارِق، والنَّجْمِ الطّارِق، والمُزْنِ الدَّافِق! إنَّ شَجَرَ الوادِي لَيَأْدُو خَتْلا، ويَحْرُقُ أَنْيابًا عُصْلا، وإنَّ صَخْرَ الطَّوْدِ لَيُنْذِرُ ثُكْلا، لا تَجِدُونَ عَنْهُ مَعْلا**» [واللَّوْح: الهواءُ الّذي بين السّماء والأرض. يَأْدُو: يَخْتِلُ. وحَرَقَتْ أَنْيَابُه: حَكَّ بَعْضُها بَعْضًا. والعُصْلُ: المُعْوَجّة. والمَعْلُ: المَنْجَى.]؛ وكان في القَوْمِ سُكارَى، فسَخِرُوا منها، فطَرَقَهُمُ العَدُوُّ فقَتَلُوهُم.

ومنه ما كانَ مِن مُنافَرَةِ هاشِمِ بنِ عبدِ مَنافٍ وابنِ أَخِيهِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمْسِ بنِ عبدِ مَناف، إذ أَتَيَا الكاهِنَ بنَ حبيبٍ الخُزاعيَّ – وكانَ عَلَى مَرْحَلَتَيْنِ مِنْ مَكّة– وكانَ معَ أُميّةَ والِدُ زَوْجِه أَبُو هَمْهَمَةَ بنُ عبدِ العُزَّى الفِهْريُّ، فقال الكاهن: « **والقَمَرِ الباهِر، والكوكبِ الزّاهِر، والغَمامِ الماطِر، وما بِالْجَوِّ مِن طائِر! وما اهْتَدَى بعَلَمٍ مُسافِر، مِنْ مُنْجِدٍ وغائِر، لَقَدْ سَبَقَ هاشِمٌ أُمَيَّةَ إلى المَآثِر، أَوَّلٌ مِنْهُ وآخِر، وأَبُو هَمْهَمَةَ بذلِكَ خابِر**»، فقَضَى لهاشِمٍ بالغَلَبَةِ.

ومنه أنّ بني تميمٍ أغاروا على لَطِيمَةٍ [عِيْرٌ فيها تِجارةٌ مِنْ بَزٍّ وطِيْبٍ] لِكِسْرَى، فأوقعَ، وقَتَلَ المُقاتِلَةَ، فبلَغَ ذلك بني الحارثِ بنِ كعبٍ مِن مَذْحِج، وحالَفُوا قبائلَ أُخرى مِن اليَمَنِ وساروا يُرِيدُونَ بني تميمٍ، فحذَّرَهم سَلَمَةُ بن المُعَقَّلِ كاهنُ بني الحارِث فقال: «**إنّكم تَسِيرُونَ أَعْقابًا، وتَغْزُونَ أَحْبابًا، سَعْدًا ورِباباً، وتَرِدونَ مِياهاً جِباباً، فتَلْقَوْنَ عليها ضِراباً، وتَكُونُ غَنِيمَتُكُمْ تُراباً؛ فأَطِيعُوا أَمْرِي ولا تَغْزُوا تَميماً!**»، فخالَفُوه، فقاتلَهُم بنو تميمٍ وهزَمُوهم هَزِيمَةً نَكْراءَ.

ومنه أنّ عبد المطّلب بن هاشم كان له ماءٌ بالطّائف يقال له (ذو الهَرِم) فغلبه عليه جُنْدُبُ بنُ الحارثِ الثّقفيُّ، فنافرهم عبدُ المطّلب إلى سَلَمَةَ بنِ أَبي حَيّةَ القُضاعيّ، وهو المعروف بعُزَّى سَلَمَة، وكانَ

بالشّامِ، فخَبَّؤُوا له خَبِيئًا ليَخْتَبِرُوه فعَرَفَه، فطلبوا إِلَيْهِ الحُكْمَ، فقال: «**أَحْكُمُ بالضِّياءِ والظُّلَم، والبَيْتِ والحَرَم! أَنَّ الماءَ ذا الهَرِمِ، للقُرَشِيِّ ذِي الكَرَم**».

٣ . الظواهر الفنّيّة لسجع الكهّان :

هذه الأمثلةُ مِن آثار كُهّان الجاهليّة تُعطي صورةً لكلامِهم وظواهرِه الفَنِّيَّةِ شَكْلاً ومضموناً.

أ– ظواهرُ الشَّكل:

يُلحَظُ أنّ أبرز ما في كلامهم من حيثُ الشّكلُ هو **ملازمَتُه السَّجْعَ**، حتّى قال الجاحظُ في بعضهم: «كان حازِي جُهَيْنةَ وشِقٌّ وسَطِيحٌ وعُزَّى سَلَمَة وأشباههم يتكهّنون ويحكمون بالأسجاعِ » [والحازي: الكاهن]؛ وقد ضرَبَ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم بِسَجْعِهِمُ المثَلَ، إذِ اقتتلتِ امرأتان مِن هُذَيْلٍ، فرمَتْ إحداهما الأُخرى بحَجَرٍ فأصابَتْ بطنَها وهيَ حامِلٌ، فقتلَتْ ولدَها، فقضى بأنْ يُودَى الطِّفْلُ غُرَّةَ عبدٍ أو أَمَةٍ، فقال وَلِيُّ المرأةِ الّتي غَرِمَتْ: «**كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لا شَرِبَ ولا أَكَل، ولا نَطَقَ ولا اسْتَهَلّ، فمِثْلُ ذلكَ يُطَلّ**»، فقال النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «**إنَّ هذا مِن إخوانِ الكُهّان**»، وذلك بسبب سَجْعِه الّذي سجَعَ؛ وهذا السّجع الّذي يلازم كلامَهم يعتمدُ في الغالب على سَجْعَةٍ واحدة، على خِلافِ كلامِ الخُطَباء، فإنهم يُنَوِّعون فيه.

وممّا نلاحظُ أيضًا **قِصَرُ عباراتهم وتوازنُها**، وهي في الغالبِ أقصرُ مِن عباراتِ الخطباء؛ بل إنّ أقوالَهم هذه جُمْلَةً تتميّزُ بالقِصَر، إذ لا تكادُ تصلُ إلى عَشْرِ سَجَعاتٍ في أطوَلِها إلاّ نادرًا؛ وكلّ ذلك يوفّرُ لأقوالهم ما يَبْهَرُ السّامعَ ويؤثّرُ فيه.

وأمّا **خَلْطُ الشّعرِ بالنّثرِ** الّذي تُلْحَظُ قلّتُه في خُطَبِ الجاهليّين، فقلّما نلقاهُ في آثارِ كهّانِهِم أيضاً، وإن كانَ بَعْضُ تَكَهُّنِهم شِعراً أحياناً.

ب– ظواهرُ المضمون:

يُلحَظُ في سجع الكهّان من حيثُ المضمونُ: **كَثْرَةُ أَقْسامِهِم بمظاهرِ الطّبيعةِ** من نجومٍ وكواكبَ، وبَرْقٍ وغَمامٍ ورِياح، وحَيَوان، ونحو هذا؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ في هذه الأشياء قُوًى وأرواحًا خَفِيَّةً؛ ولأنّ الاعتماد على القَسَمِ مِن أساليبِ التّوكيدِ والمبالغة، فهم يؤثّرونَ بأَقْسامِهم هذه فيمَنْ جاء إليهم؛ وقد جاء القَسَمُ بمظاهرِ الطَّبيعةِ وغيرِها في القرآن الكريم كثيراً تَنْبِيهاً على عَظَمَةِ الخالِقِ وتمهيداً للأمر الّذي تتناولُه الآياتُ بعدَ القَسَمِ، ولله تعالى أَنْ يُقْسِمَ بِما شاءَ مِن خَلْقِه، ولكنْ لا أَثَرَ لِلْقَسَمِ بشيءٍ مِن ذلك في أحاديثِ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، وهذا مِنَ الفَوارِقِ المميِّزةِ لكلامِ اللهِ سُبْحانَهُ مِنْ كلامِ رَسُولِه.

وتكثُرُ في كلامِهِمُ **الألفاظُ الغامِضةُ** الّتي ربّما ألجأهم إليها السّجع، وربّما لجؤوا إليها ليوفّروا لعباراتهم غموضًا يسمَحُ بتعدّد تأويلِها، وربما كانت كثرتُها لأنَّ معظمَهم مِنَ اليمن، وفي لغةِ اليمنِ ألفاظٌ ليسَتْ في لغةِ الشَّمال.

وبذلك روّج كُهّانُ الجاهليّة أقاويلَهم بأَسْجاعٍ كانت تروقُ السّامعين، فيَسْتَمِيلون بها القلوب، ويستَصْغُون إليها الأسماعَ، فكان لهم ذلكَ الأثرُ والسّيطرةُ على الجاهليّين، حتى جاء الإسلامُ فذمَّهم، ونَهى عن غِشْيانِهم، فقال رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلّم: «**مَنْ أَتَى كاهِنًا أو عَرّافًا فقد كَفَرَ بما أُنزِلَ على مُحَمَّد**»، وعندما ذُكِرَ له أنّهم يُحَدِّثونَ أحيانًا بشيء فيكونُ حقًّا قال: «**تِلْكَ الكلمةُ مِنَ الحَقِّ، يَخْطَفُها الْجِنِّيُّ، فَيُقِرُّها في أُذُنِ وَلِيِّه، فَيَخْلِطُونَ معَها مِئَةَ كَذْبَة**».